نظرة القرآن الكريم للشعر والشعراء

أ.د. عبدالله بن محمد الشعلان

قسم الهندسة الكهربائية - كلية الهندسة
أستاذ كرسي الزامل لترشيد الكهرباء
جامعة الملك سعود - الرياض

حتى نتعرف على موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء فلا بد من حصر الآيات التي تطرق إليها القرآن عن الشعر والشعراء. لقد ورد ذكر الشعر في القرآن لأول مرة في سورة ياسين في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ (الصافات، الآية: 69)، فتتضح في هذه الآية الكريمة مهمة الرسول عليه الصلاة والسلام بأن الله بعثه مبشرًا ومنذرًا من خلال معجزته بآيات بينات في القرآن الكريم، وقد تعجّب عليه الصلاة والسلام من صدود الكافرين وإعراضهم عن القرآن والإيمان بما جاء به لاحتجاجهم بأنه شعر، كما يبين سبحانه وتعالى في هذه الآية أيضًا أنه لا ينبغي لمحمد عليه الصلاة والسلام أن يتعلم الشعر حتى يوقن الكافرون أنه لا صلة بين ما يوحى لرسوله وبين الشعر، والشعر كما لاحظه المفسرون لا يخلو من زخارف ومحسنات لفظية وأهمها الوزن والقافية يراد من ورائها إثارة الطرب والاستحسان أو الإعجاب، والقرآن تنزّه عن ذلك حيث لا يجري على نسق واحد كأوزان الشعر حيث له فواصل لا تلتزم بالقوافي يراد بها التأثير في النفس بالتذكير والتنبيه، فهو بيان وفرقان وبلاغ ورسالة يميز بين الحق والباطل وليس بغناء يُترنم به أو يقصد به المبالغة والادعاء والإثارة إنما هو ذكر يوقظ الأفئدة وينبه الجوارح. ونستنتج من ذلك أن القرآن الكريم لا يحط من مكانة الشعر أو ينزل من قيمته بل يفرّق بينه وبين كلام الله وتوضيح اللبس الذي يقع فيه الكفار لما يحمله من سحر وبلاغه وبيان. فكلمة "شعر" في القرآن الكريم لم ترد مرة أخرى بل وردت كلمة شاعر في قوله تعالى: ﴿أَيِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ (الصافات، الآية: 36). وذلك لبيان تصور المشركين ومزاعمهم، وفي سورة الأنبياء وردت كلمة شاعر في قوله تعالى:

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (الأنبياء: 5). وبعد ما تغير وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوي جانبه وضعف جانب الكفار وردت كلمة شاعر في قوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ (الطور: 30). وفي ذلك إشارة لما روي عن الوليد بن المغيرة حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة السجدة خرج من عنده وهو يقول: "سمعت من محمد كلامًا ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وقد رُدت تلك المزاعم في سورة الحاقه وفي آخر آية وردت لكلمة شاعر في مكة توضح للكفار مدى خلطهم بين الشعر والسحر والكهنوت وبأنه مرتبط بغيبيات وقوى سحرية خارقه للعادة، وتأكيد لهم في قوله تعالى في سورة الحاقه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الحاقة: 40 - 43). وقد انتهت تصورات الكافرين ودخل كثير منهم للإسلام فوقف الشعراء يدافعون عن الإسلام بالكلمة كما دافعوا بالسيف حتى عُرف في صدر الإسلام نوعين من الشعراء: فمنهم أصحاب الضلالة والكذب ومنهم الشعراء المسلمين الذين جندوا موهبتهم للدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولتوضيح اللبس لمن يشكك ويكره الشعر استنادًا للآية الكريمة في سورة الشعراء: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: 227)، ولمن يحتج بها دون أدنى معرفه أو البحث عن تفسيرها بسوء تأويلها فالمقصود بها شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء ومسوه بالأذى أما المؤمنين فقد استثناهم الله سبحانه وتعالى وشدّد على هذا الاستثناء بقوله تبارك وتعالى في الآية المذكورة سابقًا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وإلا بماذا نفسر بأن هنالك شعراء من الأنصار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سخّروا الكلمة في الشعر لمدح رسول الله والانتصار له والدفاع عنه مثل حسان بن ثابت وكعب مالك وعبدالله بن رواحه وقد قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل)، ومنهم أيضًا الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن التابعين الإمام الشافعي. وقد بارك عليه الصلاة والسلام استعداد كل من يدافع عن الإسلام ودعا الشعراء إلى ذكر مواطن الضعف في خصوم الدعوة حتى يشددوا عليهم الهجاء موضحًا أثره بقوله لرائد الشعر الإسلامي حسان بن ثابت: "أهجهم - يعني قريشًا - فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام". ومن أهمية الشعر لدى كفار قريش إنهم كانوا يرهبونه ويجزعون منه بعد اسلامهم لأنه كان يعيّرهم بكفرهم ليصبح مذَّمة وقدحًا. إذن الشعر في الإسلام رسالة من الشاعر والتزام منه في الحرص على الصدق والأمانة وذكر معاني الخير بما يخدم المبادئ والأهداف.

ومن المعروف أن نبي الإسلام لم يكن شاعرًا بمنطوق القرآن، بيد أنه عليه الصلاة والسلام كان مفرمًا بالشعر، حتى إنه جعل لحسان منبرًا في أقدس مكان عند المسلمين، أي المسجد، وأهدى كعب بن زهير بردة فسميت قصيدته "البردة"، وكم سَمَّط عليها ونسج على منوالها فطاحل الشعراء عبر الزمن. ويقول المُسلمُون إن القرآن ذو بلاغة خاطب العرب بها، ولغته راقية فصيحة، فلا عجب إذن والأمر ليس بجديد أن يفتخر المُسلم بالقرآن أمام غير المُؤمنين به، إذا عرفنا إن الأهم عند المُسلمين هو ميزة القرآن كلغة وسجع وشعر الذي يوجه القلوب والعقول إلى بدائع الكون الإلهي وخفايا النفس البشرية.

أنزل الله سبحانه وتعالى في القرآن سورة كاملة هي سورة الشعراء، وهذه السورة من عجائبها أنها بدأت بالحروف المقطعية (طسم)، وهذا إشارة إلى أن القرآن الكريم معجز في لفظه وبلاغته، ولهذا يقول كثير من الراصدين للتراث الإسلامي: إنه في عصر صدر الإسلام تأخر الشعر قليلاً، وهذا في تأويلهم: أن تأخره يعزى إلى اندهاش البلغاء والفصحاء وانبهارهم بالقرآن الكريم، ونجد مثل لبيد بن ربيعة وغيره الذين كانوا يقولون إنهم استغنوا بالقرآن عن الشعر، وإن أحدهم لما طلب منه شعر أخرج سورة البقرة وقال: الله أغناني بمثل هذا، وبالطبع لم يأت القرآن ليلغي الشعر، لكن إعجاز القرآن وبلاغته التي هي في الذروة العليا جعلت كثيرًا من الشعراء يتقاصرون عن شعرهم ويدركون أنهم محجوجون مخصومون، فالسورة بدأت بهذا المعنى، وختمت بقول الله سبحانه وتعالي: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾، وهذا في الواقع حكم على اتباع الشعراء، بأن الشعراء يتبعهم الغاوون، ثم قال الله سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وهنا تلاحظ أولاً أن الله سبحانه وتعالى بدأ بذكر الغواية أولاً، لماذا؟ لأنهم ﴿فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. إذن فالعيب ليس لذات الشعر، وإنما العيب لمضمون الشعر إذا كان رديئًا وممجوجًا ونابيًا عن العرف والمألوف، وأيضًا: نلاحظ أن الختام في الآية هو قوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

نخلص من هذا أن ذم الشعر ليس للشعر ذاته وإنما لحالات خاصة يتقمصها بعض الشعراء يخرجون بها عن دائرة العرف والرصانة والسلوك السوي، وبالطبع ما من إنسان إلا وهو يتذوق الشعر خصوصًا العرب، حتى أن ابن أبي دؤاد يقول: ما من عربي إلا ويقول الشعر في مناسبات معينة حتى لو لم يكن شاعرًا من الشعراء المتألقين المرموقين، فالنقد والعيب هنا هو لفئة من الشعراء، يقولون ما لا يفعلون، ويهيمون في كل واد، ويكون همهم هو المتاجرة بالكلمة، وحشد الأتباع، والتأثير على الغير، حتى أنهم قد يقلبون الحق باطلاً والباطل حقًا والحسن قبيحًا والقبيح حسنًا، وقد يذمون الإنسان بما ليس فيه أو يمتدحون إنسان بما هو ليس أهلاً له، ونجد في شعر المتنبي أحيانًا وهو سيد شعراء العرب مثالاً لذلك فكثيرًا ما يأتي إلى بعض الملوك ممتدحًا، فإذا خاب مسعاه ولم يحصل منه على مراده ومبتغاه رجع ذامًا له متحاملا عليه، كما في قصيدته في سيف الدولة:

(واحر قلباه ممن قلبه شبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم)

إلى آخر القصيدة التي كان يظهر فيها نوعًا من العتب بشكل أو بآخر لأنه لم يحصل على مطلبه وبغيته، سواء أكان هذا المطلب مالاً أم إمارة أم أي مصلحة ما من المصالح، فالشاعر هنا قد يقلب الموازين وينفي الأعراف، وفي حالة أخرى هي ما يعرف عن بعض القبائل العربية باسم "أنف الناقة" مما جعل الناس يأنفون من هذا الاسم بل ويعيرونهم به، فانتشلهم شاعر من هذه الوهدة وأنقذهم منها بقوله:

(قوم هم الأنف والأذناب غيرهم
ومن يساوِ بأنف الناقة الذنبا)،

فصاروا بعد هذا البيت من الشعر يفتخرون بهذا الاسم ويتباهون به بين القبائل، لذا فعلى نفس المنوال قد يطيح الشاعر بقبيلة أو أمة أو شعب أو يرفع من قدرها ومكانتها بمثل هذه الأبيات الشعرية التي لا تكلف شيئًا في حقيقة الأمر.

أخيرًا، الشعر هو لسان ولغة وإعلام، فنحن إذا انتقدنا وسائل الإعلام لا ننتقدها كإعلام، وإنما ننتقد المضامين التي تتعلق مثلاً بالتضليل والخداع والإسفاف والاستخفاف بعقول الناس ومعتقداتهم ومشاربهم، وهذا – والله أعلم – هو المقصود في الآية الكريمة التي استثنى فيها عز وجل تلك الفئة المشار إليها في الآية الكريمة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾.

> ومن أهمية الشعر لدى كفار قريش إنهم كانوا يرهبونه ويجزعون منه بعد اسلامهم لأنه كان يعيّرهم بكفرهم ليصبح مذَّمة وقدحًا. إذن الشعر في الإسلام رسالة من الشاعر والتزام منه في الحرص على الصدق والأمانة وذكر معاني الخير بما يخدم المبادىء والأهداف.